

10 تنسيق وشمول

سمتان ما زال الإسلام يعرف بهما.

سمت الاستعلاء على المبادئ الأخرى، جازماً بضلالها، وسمت وليد هذا الترفع، يطبعه بالتبرؤ من الأغيار، ومفاصلتهم، وهجر كل صاحب هوى.

وفي هذين السمتين تعبير عن فطرة التغير التي طبع الله الإسلام عليها، المتعدية بالتالي إلى طبيعة الحركات الإسلامية. وأمام هذه الفطرة، غدت مناهج المهادنة والمصالحة والتعايش بين الإسلام والكفر فاشلة.

اختلاف المنطق ينفي اللقاء

ولذلك، فإن شعراء الدعوة ركزوا على بيان هذه الفطرة التغيرية الإسلامية.

فيؤكد الشاعر الداعية محمود آل جعفر ذلك، فيقول:

وكيف لا يكون ذلك واضحاً؟

هذه دعائنا تشع كشمسنا

دستورنا القرآن، لا نرضي سوى

لم نعرف الإسلام إلا دعوة

لم نعرف الإسلام إلا اقـوة

تهوي على الرأس العنيد وتحطم^(١)

(١) ديوان حنين إلى الفجر/ ٧٢.

أندع الأمر لكل ضال؟

حالة من الواجب أن نرفضها.

هداهم وضلوا صراط السداد

مراكب تجري بوحى العناد

وبعض تستر خلف الحيات

فعم البلاء وطم الفساد

وكل له في هواه اجتهد؟

إلى مبتغاه، وبئس المراد

وهلا استجبنا لداعي الجهاد؟

وإما الشهادة يوم الجلال (١)

ولقد كان العيش المتصالح ممكناً لي أنا الداعية،

يحيد عن الجدد المشرق

يخالف منطقهم منطقي

وساروا، وسرت، فلم نلتق (٢)

فرهط الحكومات قد جانبوا

وقد أركبتم سياساتهم

فبعض تظاهر في غيه

نسوا واجب الخلق واستكبروا

فكيف النجاة وكيف الحياة

وكل يريد استيقاق القطيع

فهلا ابتدرنا إلى نجدة

فإما حياة الهدى والإباء

ولكنهم ركبوا مسلكا

وقد ملك الأمر منهم رجال

نأوا عن هدى الله في نهجهم

فهذه مفاصلة حتمية، لمجرد هذا المنطق المختلف والطريق المتعاكس،

فكيف وقد صار العدوان؟

الانسياب الموزون وليد المركز الثابت

وفي هذا ما يوجب على الدعاة الابتدار، والخروج إلى عمل جماعي يعيد

من ضل إلى الجدد المشرق وصراط السداد.

فقد يكون الدعاة دعاة فكرة مجردة، تراهم كأرواح الدعاة فهما للإسلام وعقيدته وأنظمتهم وقوانينه، وأكثرهم قراءة للكتب، ولعلمهم من أشد المسلمين حماسة، وأخشعهم في الصلاة، ولكنهم ينفرون من التقيد بخطة ونظام، ما وقر في نفوسهم اعتقده، وما تبين لهم من طرق سلوكها، فهم قادة أنفسهم، لا يبالون إن وافقت أعمالهم الدعاة الآخرين، أم خالفوها منفردين.

أولئك أبعد الناس عن الوصول إلى ثمرة إيجابية، وأولئك هم المراوحوون. أما الذين يفتحون للأمة اليوم نافذة تطل بها على نوع أمل، فإنما هم المنسقون.

إذ ما زالت التجارب والتطبيقات تظهر الأهمية العظمى لدور التنظيم في إحلال الانسجام والتنسيق بين جهود العاملين، مع استثمار أدنى درجات إمكانية إفادة الإسلام لدى الأشخاص استثماراً إيجابياً مباشراً.

وإن الخطة البارعة بإمكانية أن تجعل التنظيم مركزاً تسير في فلكه جهود الأفراد في انسيابية هندسية جميلة ليس فيها اضطراب، كانسيابية محيط الدائرة الجميل الاستدارة بالنسبة لمركزها.

إنما المركز روح الدائرة نقطة فيها محيط، ضامره
ومن المركز للقوم نظام ومن المركز للقوم دوام^(١).

فليس في الجهود المبذولة ما هو صغير إذا جاء في حينه المناسب، ومكانه المناسب، وللدعوة متطلبات واحتياجات متكاملة، بعضها يكمل بعضها، والجهود المبذولة للوفاء بها متكاملة: صغيرها يكمل ويقوى كبيرها.

وإن العمل الذي يديم سير الجماعة الداعية:

(تراه كالدائرة: يصعد بك محيط ويحبط، لا من أنه نازل أو عال، ولكن من أنه ملتف، مندمج، موزون، مقدار) ^(١).

فليس ثمة جهد في هذا العمل تظنه في قيمته وأهميته نازلا، فيسوغ إهماله، وإنما كل الأعمال على بعد واحد من المركز إذا كانت ضمن الخطة موزونة مقدرة.

تكامل في التطبيق

ثم يكون الشمول ثانيا.

وهو شمول بالسعة التي بلغها الإمام البنا / في الأصول العشرين، فإسلامنا:

(دولة ووطن، أو حكومة وأمة، وهو خلق وقوة، أو رحمة وعدالة، وهو ثقافة وقانون، أو علم وقضاء. وهو مادة وثروة، أو كسب وغنى. وهو جهاد ودعوة، أو جيش وفكرة، كما هو عقيدة صادقة وعبادة) ^(٢).

إنها سعة في الفهم، توجب على تجمع العاملين سعة أخرى في الأسلوب والتطبيق.

فليست الدعوة الإسلامية حزبا سياسيا، وإن كانت ساعية إلى الحكم، في انتباه تحذر معه أن تلهيها الأحداث عن خطها التربوي، وواجبها العبادي.

(١) من تشبيهات الرافعي لبعض الأمور خلال وحي القلم ٤٢٦/٣.

(٢) رسالة التعاليم.

ولا هي مجمعا فقهيا محضا، أو كلية شريعة، أو دارًا للإفتاء، وإن كانت تحرص على الثقافة الشرعية، والسير على بينة من السنة الغراء، في بعد عن الجدل في الفروع، وعن الترف الفكري المشبط لهما في التجميع وقيادة العامة.

ولا هي دار نشر، أو وكالة إعلامية، وإن كانت الصحافة وملاحقة الأحداث وبيان حكم الإسلام فيها من تمام واجباتها.

ولا هي بعد ذلك منظمة فدائية، أو مؤسسة عسكرية، أو فرقة كشفية، وإن كان الجهاد أصلا من أصولها، والألعاب الرياضية أسلوبا من أساليبها، في غير ما تورط في عنف ومجازفة واستعجال.

كما أنها ليست جمعية خيرية، أو وزارة أوقاف، وإن كانت تأخذ بيد اليتيم والفقير، وتسعف المريض، وتساهم في بناء بيوت الله.

نعم، ليست الدعوة شيئا من ذلك، ولكنها كل ذلك، فإن تراخى الحاجات، وقصرت الطاقات كان تقديم الأهم وفق نظرة نسبية، تبعا لميزان التوفيق بين المصالح والمفاسد المتعارضة، بإهدار كل مصلحة صغيرة يؤدي الحرص عليها إلى تفويت مصلحة أكبر منها، واحتمال السير من المفاسد، لدرء ما هو أعظم.

قيادة المسلمين أولى من زيادة البر

ويبدو من تجاربنا، أن الأكثرين ممن نخاطبهم اليوم ينقصهم الوعي السياسي، والمنهج الفقهي، ولم تتوهج فيهم بعد روح الجهاد.

ولكن الجانب الخيري هو الذي ما زال يحتل شطرا واسعا في تفكيرهم، وإن نقصت الأموال التي بأيديهم - في الحقيقة - عن مجاراة هذه السعة في

التفكير، ولذلك فإنهم بحاجة إلى مزيد خطاب يفهمهم تكامل الدعوة وامتيازها عن أساليب الجمعيات الخيرية.

ولا شك أن مما يساعد على ترجيح هذا التفكير عندهم: تلك القلوب الرقيقة التي يملكونها، المفعمة بالإيمان الفطري، والتي مازال يؤجج تركيز الوعظ على معاني البر ومكارم الأخلاق حماسها للمساهمة في كفالة الأيتام، وبناء المدارس ورفع المساجد.

ووالله ما نطق واعظ بغير الحق، ولا كذبت أحاديث الفضائل، ولا غفلنا عن أثر ذلك في ترويج الدعوة بالتربية الميدانية التي تحطم الحواجز ويعامل الدعاة المربون خلالها عموم الناس مباشرة، إذ الناس في جوانب حياتهم منغمسون.

ولكن داعية الإسلام قد رصدته صفته لأهم من مجرد ذلك وأجل، وعليه أن يسد ثغرات ما نرى في الأمة من يسدها إلا هو، ليس أجرها بأقل من أجر أبواب الخير، إن لم يكن أضعافها.

إن أمام الداعية تنفيذ هذا الواجب التجميعي التربوي الثقافي الإعلامي السياسي الجهادي الخيري، في شموله الواسع وتكامله المترابط.

وهو التميز الثاني، من بعد التميز الأول عن عامة المسلمين بواسطة الجماعة في العمل.

وهو تميز قديم لا نبتدع القول به، أمر به إمام دعاة زمانه أحمد بن حنبل

./

وذلك لما سألته تلميذه زهير بن أبي زهير، فقال:

(إن فلانا ربما سعى في الأمور، مثل المصانع، والمساجد، والآبار؟

قال: فقال لي أحمد:

لا، نفسه أولى به.

وكره أن يبذل الرجل نفسه ووجهه^(١).

فهاهنا مسألتان كشف عنهما الإمام أحمد:

الأولى: كشفها ألفاظ هذه الحروف، وهي ألا يبذل الداعية وجهه، بالتعرض إلى جمع المال من الأغنياء، ولو لمصلحة عامة، فقد يحبس هذا النشاط لسان الداعية عن قول الحق.. أمراً أو نهياً.

والثانية: يكشفها مجمل قصده من حفظ الوجه، وهو التفرغ، بهيبة كافية، لقيادة جمهور المسلمين، ومصاولة الابتداع وأعداء الإسلام، والأمر بالمعروف، ونشر العلم، مما تفصح سيرته هو عن مثل ذلك.

وهذا الإفتاء قريب مما ذكره فقهاء الأحكام السلطانية، حين أوجبوا على الخليفة ألا يتشاغل عن سياسة الدولة وتدبير الجيوش بالعبادة وأعمال البر الشخصية، كما قال الماوردي، حين جعل من واجبات الخليفة:

(أن يباشر بنفسه مشاركة الأمور، وتصفح الأحوال، لينهض بسياسة الأمة، وحراسة الملة، ولا يعول على التفويض تشاغلا بلذة أو عبادة، فقد يخون الأمين، ويغش الناصح، وقد قال الله تعالى: ﴿يَدَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ﴾ [ص: ٢٦].

فلم يقتصر الله سبحانه على التفويض دون المباشرة، ولا عذره في الاتباع حتى وصفه بالضلال.

(١) طبقات الحنابلة لابن أبي يعلى ١/ ١٥٩.

وهذا، وإن كان مستحقاً عليه بحكم الدين ومنصب الخلافة، فهو من حقوق السياسة لكل مسترع.

قال النبي ﷺ: "كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته" ^(١).

وإنها لرعاية حقاً، ومسئولية صدقاً.

معهما يلمس المرء تماماً البعد الشاسع بين جهدين:

جهد السعي المجرد في مصالح الناس، مهما أتعب البدن.

وجهد مواكبة الدعوة في شمولها، مواكبة تستهلك البدن، وترهق الفكر، وتمتص رحيق الروح.

ولذلك كانت حالة الشمول سمواً، لا يقوى عليها إلا أشداء المؤمنين.

